

لماذا نترجم؟ من سذاجة السؤال إلى عمق الاشتغال التناسلي

Why Translate? From the Naivety of the Question to the Depth of Intertextual Engagement.

Belkacem Aissani بلقاسم عيساني

aissani.belkacem@univ-medea.dz

جامعة يحي فارس - المدية / الجزائر

DOI: 10.46315/1714-015-002-026

الإرسال: 2025 / 08 / 01 القبول: 2026 / 05 / 16 النشر: 2026 / 06 / 10

**

ملخص:

الترجمة معترك لغوي وثقافي، بل ومعرفي في متحزاه النقل بين الحضارات، صيغها الوصفية كانت ولا زالت مجالاً لاستكشافات منهجية بغية الاستغراق في إشكالاتها لصالح إرساء قواعد ومرجعيات من شأنها تبسيط آليات التصدي للمتون المعقدة، بغض النظر عن انتماءاتها التيماتية، ومنها ندلف إلى الخلفيات الإبستمولوجية التي تؤسس الفعل الترجمي كنشاط ذهني يقارب ويسدّد في إطار فكر مقارن بين لغتين وكذلك بين ثقافتين أو أكثر، ذلك أن الغيرية كروية وتصور مفارقين لعالمي التجسيد والتجريد هي محك الإلتقان الترجمي لكن بتجاوز الهجنة الملفوظية والخزفية المشوّهة إلى مبادرات تصيغية تقوم على الأسلية القائمة على احترام قواعد وأساليب وفصاحة اللغة التي نترجم إليها. مقالنا دراسة في العلائق بين: الترجمة واللغة، والترجمة والثقافة، وتحديات الحقول المعرفية بشكل عام.

كلمات مفتاحية: الترجمة؛ الحقول المعرفية؛ المقارنة؛ الإبستمولوجيا؛ التصور الثقافي

Abstract:

Translation is a linguistic, cultural, and epistemic arena mediating between civilizations. Its descriptive modes have always served as a field for methodological inquiry, immersing in complexities to establish rules and references that streamline the handling of intricate texts, regardless of thematic orientation. We then examine the epistemological foundations that treat translation as a cognitive activity within a comparative framework between languages and cultures. Otherness, a vision of contrasting realms of embodiment and abstraction, tests translational proficiency, moving beyond distorted lexical hybridization and literalism toward reformulations rooted in stylistic choices that respect the rules, conventions, and eloquence of the target language. This article studies the relationships between translation and language, translation and culture, and the challenges facing knowledge domains.

Keywords: Translation; Fields of knowledge; Comparison; Epistemology; Cultural perception

**

1- مقدمة

لعلّ السؤال – وهو مستفز بالضرورة – يكون خارطة طريق للوقوف عند مفترقات الطرق المنهجية التي تتيح لنا اختيار وجهة المناجزة لإجابة منتظرة نتوقعها – كأفق انتظار – بسيطة وهي مشبعة التعقيد، ذلك أن سذاجة الطرح التي توجي لأوّل وهلة بعدم الحاجة إلى جواب، سرعان ما تتحوّل نحو استغراق معرفي يحوجنا إلى كل قدراتنا الإدراكية لتتبع مسارب التأثير الترجمي في كل مجالات الحياة. عندئذ نكون قد عبّدنا الطريق نحو طرح أسئلة أكثر جدوى مثل: ماذا نترجم؟ وكيف نترجم؟ لا طريق لكسر احتكار المعرفة سوى الترجمة مع هذا التطور الهائل للعلوم والتقنيات والفنون والآداب، فيكون

التلاقح باعتباره آلية لا غنى عنها لتطوير الفكر المحلي، ولقد كان للترجمة في كل أزمنة النهضة (العربية والأوروبية خصوصا وذلك لإمكانية الرصد) دور في غاية الفعالية سمح بتحويل la transposition المنجزات الحضارية الغربية وتدجينها في إطار الثقافة الجديدة، من هنا يكون تفصيل القول في حيثيات هذا الاستيراد المفاهيمي - خاصة على مستوى ألفاظ الحضارة - من نافلة القول، فإن كان لا بد من ذلك، فلأجل عرض الكيفيات التي تم اعتمادها لاستحداث مستجدات المعرفة عبر سفر الأفكار من أمة إلى أخرى. لكن «قبل البدء حتى ..» علينا أن نحيّن الرغبة الترجمية باعتبارها نشاطا متدوّتا يحتكم إلى ذلك الشغف العميم الذي لا يغادرنا في محاولة إعادة تشفير المكتوب le déchiffrement لصالح فهم يراوح ذات المعنى لكن من خلال استبدالات تحاك داخل العقل .. وكلنا نتذكّر نظرية ياكوبسون وتصنيفته الشهيرة حينما برهن على أن الترجمة بنية ذهنية قبل كونها نشاطا لسانيا ينوس بين اللغات، وتلك الفعاليات هي : traduction intra linguistique أي عملية تهيئة كمغايرة ملفوظية داخل اللغة الواحدة، inter linguistique أي بين الألسن، وهي أشهر صيغة نعرفها كونها وظيفية تنقل المعنى بين اللغات، أما الثالثة، فهي inter sémiotique أي تحويل العلامة كونها معجمة، مما منحها معنى لغويا، أي تضحي ملفوظا دالا . إذن الترجمة حيثية ملزمة للطبيعة الإنسانية لا نملك عنها حولا، جنيسة الكلام، والقراءة، والكتابة، بل هي جزء منها جميعا، مندرجة في خضم التعاطي اللغوي الحامل للمعنى، هذا على المستوى الفردي. أما الجماعي، فهو جانب يتكرّس كسياسة ينبغي رصف مواصفاتها لتكون عملية متعلّقة ببيئة ما كحاجة معرفية ملحة يحتكم إليها الواقع من حيث هو منقصة لا تكتمل تصورا إلا بمعرفة ما عند الآخر .

2- التحدي المعرفي وكيفية المبادأة

المعرفة في حد ذاتها بحر مترامي الأطراف، وفي إطار التقسيم الأكاديمي أولنقل الإجرائي تحدّد الأهداف الترجمية من حيث هي مجالات تخصصية، ليس بالمعنى الضيق على مستوى الانكباب الزمني حول حقل معين، لكن ببعد النوازع البحثية والميول النفسية التي من شأنها صب الاهتمام على قطاعات بعينها، ولا توجد نزعة غير مؤسسة ثقافيا، بل الكل تشقّعه تجزّات معرفية قبليّة يمكن من خلالها الولوج إلى منافع قطائعية تتخلّق الميل الترجمي، عندئذ تبدأ مسيرة التوغّل في مفاصل المتون التي من شأنها - كأعتقاد حقيقي أو وهمي - إحداث فارق نوعي في استيراد الأفكار نظرية كانت أو ذات ملمح عملي أو تقني، لكن المتعارف عليه حدّا أن الترجمة متعلقة بعنصر الإضافة، والجدة، باعتبار ذلك استشرافا يتجاوز ما هو متعارف عليه في ثقافة الذات، وهنا يتجسّد مفهوم الفعل المؤثّر في سير الأحداث المعرفية، فالاستزادة النوعية تُعلي من شأن ما يُؤتى به من الغير، لهذا هناك ارتباط حميم بمفهوم آخر هو الغيرية، وبتلك الحدود غير المرئية بين ما عندنا كأنا حضارية، وما عند الغير المختلف بالضرورة، فضلا عن الارتباطات التاريخية التي خلّفت هيمنة على كل مستويات العيش، اللغوية والثقافية على وجه خاص، لذا تكثّر الترجمات من الفرنسية في المغرب العربي ولبنان وسوريا، والترجمات عن الانجليزية في بقية الأقطار العربية والإسلامية (هذا حين نتحدث عن انتماء عقائدي ومناطق يمايز بين الهويات القارة والمتحركة)

دون أن نفعل الجانب الفكري أو التقني أو الفني القوي في كل لغة، عندئذ تتحدّد الخيارات انطلاقاً من كل هذه العوامل ذات التأثير الكاسح من حيث هي موجّهات لا يمكن تلافئها، لأنّ الإرادة الفردية مهما علت همّتها لا تستطيع تجاوز إكراهات الواقع إلاّ لمّا، ذلك أن الانفتاح المجتمعي له أيضاً دور في انفتاح الرؤى الترجّمية على لغات لم تورث عن الاستعمار، تُعتبر اليوم مهمّة، ونعتقدها خالية الوفاض - أو قليلته - من أي منجز حضاري مهم أهل للتعرف عليه، وهذا الشعور أو الظنّية المشوّهة ليست سوى إرث استعماري تقبّلناه من حيث كونه عقدة تقسّم العالم إلى قوي وضعيف، مهم وهش، إلخ من التوصيفات التي تسم ضحالة فكر غير تجريبي يسلم بالمعطيات والاحتسابات التي تم ترسيخها في الأذهان ضمن سيّورة تاريخية جانحة، عندئذ هناك فطنة وجب حضورها في تخيّر مجالات الترجمة والأعمال التي يمكن الحرص على استجلائها، هذا قبل أن نصل إلى نوعية الأعمال التي تُراد ترجمتها بناء على اختيارات فردية، وهذا مجال اكتشافي نتلمّحه في مقدمة المترجمين الذين يحدّثوننا عن أسباب اختيارهم للعمل، أولاهم مؤلفات الأعلام في كل لغة، وغني عن القول أن مفاصل كل ثقافة تحدّد مجموعة أسماء تشكّل علامات فارقة، ولدى كل مؤلف تفاضلات إنجازية من حيث الأهمية، إذ يحتل مؤلّف بعينه مكانة قد لا تكون قابلة للتكرار، لكن المحدّد العام عادة هو عامل الشهرة التي نالها العمل في لغته، ولعل الصعبد الأصعب الذي علينا الاضطلاع بتوصيفه هو الكثافة الترجّمية التي تتم في إطار النشاط الجماعي الذي تكتنفه مجموعة بشرية ما لها انتماء، دولة كانت، أو قومية، أو ديانة، إلخ من أبعاد التقمّص المؤدّج لمفهوم الأنا، فالحصيلة هي التي تعكس زخماً ترجمياً يمكن الالتفات إليه، وهذا لا يعني التركيز على الجانب الكميّ رغم أهميته، بل الكيف هو الأجدر بالتنبّع وتصحيح المسارات والممارسات والاستثناءات، ذلك أن الترجمة تفتح أبواب التعرف المتلاحق دون هوادة، وكل كتاب يُنبئ ويغرس فينا شغف مصنّف آخر يغري بالترجمة، فنكون إزاء تواصلات ثقافية لا تنتهي، هذا الأطرّاد هو الذي تتخلّق من جزائره أنماط حضارية تُغني الاكتساب المحليّ وتساهم في تطوّره، فنترجم الأهم فالهم من معالم الفكر مهما كان نوعه ومجاله، أما كيف نترجم ؟ فذلك يدخلنا في صلب النظرية الترجّمية، لكن اللافت للنظر، أننا نقارب علماً له تواشجات مع معطيات عدة يتأثر بها وتتأثر به، فهناك العلاقة مع اللغة، قديماً وحديثاً، والعلاقة مع الثقافة وما تمثّله من حيثيات المغايرة، والعلاقة مع تيمة النص وما تتطلبه من التمكين، والعلاقة مع فنية المكتوب الأمر الذي يحيل على تصنيفات ذات شأن من خلالها نطلّع على طريقة التعامل مع متون ذات متطلبات خاصة كالنصوص الأدبية والفلسفية، ومن الإشكالات النوعية ترجمة النوع، وهذا اضطرار يحمل الكثير من التحديّات التي من شأنها طرح معوّقات غير معهودة باعتبار وجود أنواع لا تتقاسمها الثقافات والجغرافيات، الأمر الذي يطرح مشكلة تصنيفية في كيفيات التعامل مع إطار شكليّ لفن تحبيري غير موجود في اللغة المترجم إليها، فضلاً عن قضايا ترجمية تتعلق بالترجمة الذاتية وإشكالاتها. لعل أهم عنصر باعث على الترجمة هو عنصر الاضطرار،

وذلك لواقع الاختلاف اللساني بين الأمم، ولأن التواصل بكل مستوياته ضرورة إنسانية، تجد البشرية نفسها مجبرة على الترجمة، ليس فقط لأن الإنسان كينونة اجتماعية واقتصادية (ضرورة التعاملات التجارية وما تتطلبه من زخم ترجمي) بل لأنه أيضا ذو تطلّع معرفي لا يعرف حدا بغية تحسين حياته الوجودية والاستفادة من تجارب الغير، لذا نقول أنّ من حسنات الاختلاف اللغوي بين الشعوب هذا الاضطرار للترجمة لتحقيق المبتغى الرباني في التعارف وتبادل الخبرات، فالترجمة تضحي جنيصة الحياة والرفق والازدهار، بل الترجمة هي الآلية المثلى لصنع بهجة الحياة إذ تضطلع بالجديد دائما، وتنبّه العقل أن هناك أكثر من تصوّر لمقاربة أحداث الكون ومؤثاته من الأشياء والأفكار والفنون، فهل ترتقي الترجمة لأن تكون حاجة وجودية تنمّاهي مع الاستعمال حد التحول من غريزة لغوية إلى غريزة ترجمية ؟ ذلك أن التماهي يكاد يتطابق بين إرادة الكلام والفهم وإرادة الترجمة، فهي خاصية إدراكية إذن، حد القول على لسان مارتين هايدغر «لا شيء خارج اللغة» فهل سنصل لنقول يوما «لا شيء خارج الترجمة» ؟ وذلك لأنّ السبر اللغوي إذا ما استغرقناه يُرينا أن اللغة أمشاج أصول لا تُحصى، ولن ندرك المحلي فيها من الوافد، وبالتالي قد تكون في مجموعها شذرات ترجمية اختفت معالم استمداداتها وبقيت هي، أي جيش خلال (على حد تعبير رولان بارت) من الجزيئات السطرية، لكنّ نصيبا من المتون التي تحتكر المشهد النصي منسوبة لأصحابها، لذا يتم تداولها بوعي أصولها التي جاءت منها، لذا نقول أن الترجمة تقاطع طرق عظيم لكل ما حبره الإنسان، لأنها تُمكن من القفز على الحواجز اللغوية باعتبارها موانع صادة لانتقال المعرفة، لكنها ليست أداة سحرية للتجاوز، بل آلية تحوج إلى ضحك المكابدة والبحث والتحري المسؤول الذي يبتغي الإفادة والمتعة الفكرية بسمت في، ذاك طريق تربية الذوق، هذا الذي يعبر عن مدى نضج التحلي بالمتطلّب الحضاري المنافس والمتجدد في كل حين، والملاحظ إذا ما حللنا بخلفية سوسيولوجية، أن الترجمة هي السبيل الوحيد لتخليق الأنتلجنسيا التنويرية في كل مكان سواء كانت علاقتها بالترجمة إنتاجية أو استهلاكية، إذ عبرها يمكن رسم معالم الخريطة الثقافية الكونية، إذن الترجمة مجال رئيسي لتكوين النخبة ورقمتها، وإلا من أين تُستمد الأفكار باعتبار أنّ الاقتصار على المحلي مصير يشبه السباحة في بحيرة أسنة، ولا يحوج أمر هذه القناعة أمثلة من التاريخ في تواصل الحضارات المختلفة واستجلاياتها الفكرية منها، فالمسار متخيم بها، وما الترجمة سوى استبدال للدال والإبقاء على المدلول، لكن هذه العملية تتسم بالتعقيد الشديد في ظل ارتباطات ألسنية بمعتركات رمزية التأشير العلاماتي ولا تطابقية الرؤى الحياتية، ورغم الجهود الممنهجة في تصنيف تقاسيم الظاهرة إلا أن الاختلاف لازال سائدا ومتطورا في حلبة نقاشية لا تنتهي، وهذا الذي يحول دون كونها علما بمعالم محدّدة، حتى عبر توقّعات وتركيبات الترجمة الآلية، التي يفاضل ضمنها الذكاء الاصطناعي، لازالت متون تتحدى وغير قابلة للتوقّع التنبّي المبني على احتمالات إحصائية، ذلك أن السياق الجبّار لا ينضب معينه في تحدي ما تم تخزينه الآلي، أما نظريات الترجمة فهي تسطّرات بَعْدية لمنجزات تطبيقية تحاول من خلالها استشفاف القوانين العامة والخاصة التي بإمكانها تشكيل منظومة تصنيفية تُعَدّد وتحصر مجمل مظهرات الترجمة في مختلف الحقول المعرفية. المقترح النظري دائما يتّسم بالمرونة عبر الحذف

وإعادة التقييم وعدم تقديس المعايير les normes في ظل تفاوتات تلغي سوابقها، لكن هذا المعتكز الترجمي أجبر الساعين للتنظير على التواضع والاكتفاء باعتبار الترجمة مجالا بحثيا له خصوصيته المتمثلة في صعوبة القبض على قوانينه الراحية لتطوره، فهل هذا يعني خلو الفعل الترجمي من مرجعيات يعود إليها ؟ الممارسون للترجمة والمراكمون للتجربة يدركون أن هناك أطرا عامة لا بد من مراعاتها، تجاوزها يؤدي إلى حركة مسخ تودي بالنصوص إلى زيف المعنى، لذا وجب احترام نتائج المقارنات الترجمية بتشديد قاموسية تضطلع بالحدود الدنيا للمتطلب الترجمي، دون رسم حدود عليا باعتبار النشاط الترجمي فعلا إبداعيا يعجز عنه مطاؤه، لذا وجب التنسيب، أي ممارسة الترجيح بين عدة صيغ أيها أقرب إلى المعنى في اللغة الأولى، نسبية الحكم تستند إلى معطيات سياقية نمنحها الأفضلية، هذه الطريقة تمنع دوغمائية الادعاءات التي تتعصب لطرح ترجي صلب لا يعرف الزحزحة في موقف تأباه اللغة أولا، والثقافة ثانيا، وخصوصية تعيين المقصدية التأليفية ثانيا، خاصة في النصوص ذات السمت البلاغي المتفوق، أما المجال العلمي فمتاح للأكاديميين بضوابطهم المنهجية، محاولة منهم لحصر المفاهيم وشحن المصطلحات، بينما نجد الحقل الفكري العام منضبطا إلى حد ما ويتعامل مع الفكر ضمن كفاية إفهامية تتراوح بين لغة مصطلحية وأخرى اشتقاقية تكون في متناول الجميع، المعاني المترجمة ستكون في المنطقة الجرافية المسماة standard من حيث هي معيارية فضفاضة، تلك هي متطلبات المجال التواصل العام، أما النصوص الأدبية والشعرية خصوصا، فلها شأن آخر من حيث إبداعيتها المتفلتة، ويصبح ذوق المترجم في قياس السياقات هو المعيار الأوحده، حيث يوظف فيه الثقافة القبلية وحنكة التجربة معا، لعله وعسى يقترب من روح النص السابق، رغم أن الروح أمر غامض ولكنه توصيف لعدم القدرة على التوغل في مساحات المعنى المتمنع والمراوغ عبر مخاتلات يصعب تتبعها والقبض عليها.

3- كيف نترجم التناص ؟

في خضم التمايزات النصية التي ذكرناها أنفا، لابد من التعرّيج على إشكالية ترجمة مهمة، حيث أنّ النص لا يرتبط فقط بصاحبه وكأنه منتج إجمالي تفاصيله متشابهة ومتجانسة حد التماهي، بل هو مجموع اقتطاعات انتظمها الذاكرة ضمن تيمات معيّنة، نكتب بوعي أو من دون وعي صاحبها، وتصنع لنفسها تواسجات داخلية، لذلك نلاحظ في كل نص مجموعة نصوص تكوينية صغرى تؤثت فضاء النص، ولها تأثيرات دلالية جمّة، فإذا ما تم إغفالها ترجميا، نكون قد تجاوزنا وتجاهلنا مجمل خصوصيات التعبير التي تسكن النص قبل الترجمة، فيما يمكن عدّه تزييفا صريحا أو إفراطا جسيما يحول دون فهم النص أو يعزّيه ويجرّده من غناه الداخلي، لكن الملفت أن هذه النصوص التكوينية تتمظهر ضمن أطر واضحة، وأخرى غير واضحة، فنجد الاستشهاد الصريح، وهذا حبره شخص آخر، الأمر الذي يعني خصوصية أسلوبية وملفوظية تختلف عن عموم النص الذي أدرجت فيه، فكيف

يمكن للترجمة أن تعكس أسلوبين متداخلين ضمن متن واحد؟ ونجد الاستشهاد غير الواضح، الإشاري، وهذا طريقته الإحالة التلميحية، هذا التأشير يفهمه القارئ في النص البدني لأنه من معطيات ثقافته، لكن القارئ الثاني بعد الترجمة لا يمتلك معطياته حتى يتفاعل معه، وهذا يُحوج إلى ذكاء التعامل من خلال التوضيح عبر التعليق والتمهيش الموازي، أو عبر طريقة إيمائية بعجالة توصيفية لا تُثقل سير الترجمة وتسبب في ترهّلها، هذا الملمح يختلف عن الجانب الإحالي الصريح الذي يُلزم بذكر تفاصيل الإحالة باستفاضة أو اختصاراً، لكن الإشكال الأكبر المطروح هو التناس الأسلوبي، وهو تداخل أسلوبين لا يمكن فصلهما، لأن توليفتهما تنفع فائض الدلالة، وهو معنى سياقي ترتّب عن ذلك التواشج الوثيق، على سبيل المثال؛ كاتب انجليزي متأثر بشكسبير، أو شاعر عربي متأثر بالمتني، في جُزئي نصي تشكّلت فحواه نتاج هذا التأثير، كيف يمكن للمترجم أن يحقّق معادلة تمثّل الأسلوبين معا وتحقيق الأثر الجمالي الذي توقّر في اللغة الأولى لينقله إلى اللغة الثانية؟! هناك من يطرح طريقة النظائر، أي اقتراح تمازج أسلوبين بين كاتبين من اللغة الثانية وذلك فقط لخلق الأثر *la trace* الذي توقّر في اللغة الأولى، وبين احترام جسد النص، أو احترام مخلفاته، تنشأ الاختلافات في إطار تنوّع الرؤى الترجمية، والتي لا يمكن تخطئها بحال، لأنها اجتهادات تصبو إلى تحقيق ما تراه الأفضل، وباعتبار النص شبكة علائقية موسّعة بين ملفوظات وعبارات وأحيانا فقرات لها مصادر عدة وانتماءات خطابية مختلفة، يقوم النص الذي يتضمنها بتدليلها وتوجيهها لخدمة مبتغاه الدلالي من دون السماح لها بالاستقلال عنه، أي يفرض عليها هيمنته بمقتضى مآل يخدم وجهته، عندئذ لا بد للترجمة أن تعكس هذا التطويع وهذه الهيمنة، لأنه معطى سياقي به يتحدّد الجانب الجمالي الذي يمثّل الإضافة التي تسكن الخطاب الجديد، وهذا الذي يمثّل إخلاص الترجمة، أو الوفاء بالمعنى الواسع للكلمة، لأنه يُظهر طريقة المعالجة النصّية، والذي يمكنه كشف هذا البعد، هو ما ننعتة بالنقد الترجمي، الناقد هنا غير مكْتَفٍ بثقافة واحدة، لكنه ذو فكر مقارن بين ثقافتين ولغتين ضليع بهما، علاقته بالمترجم كعلاقة الكاتب بالناقد، مهمّته الرصد والتقويم والنقد، هو الذي من شأنه أن يكون مطلعاً على كفاءات النقد التحليلي بعيد كمّية النظائر المتوفرة والتي يمكن تخليقها، لكن الذي يسترعي الانتباه أنّ الترجمة ذاتها قد تُعدّ تناساً، لأنّ هناك نصّين؛ الثاني مُستلهم من الأول، يتقاطع معه على مستوى التشكيل المتني بأجمعه، وعلى مستوى الأفكار، إذن هناك نص لاحق انجرّ وتخلّق عن سابق، وهذا يذكّرنا بنمط علائقي آخر أسّسه جيرار جينات بين النص الفوقي والنص السفلي، هي ذاتها العلائقية المفارقة بين النص الحاضر أو الحالي والنص الغائب كما ينعتة محمد بنيس، هذه مجرد اجترحات، لكن الفكرة واحدة: ثنائية نصّية تتبادلان التأثير، فكيف نرصد هذا التأثير، وكيف نحدد مواصفاته الدقيقة؟ توصيف الكيفية ينبئنا عن كيفية اشتغال اللغة من الداخل، عندئذ يمكن أن نعرّف ترجمة التناس أنها حساسية حادة اتجاه فويرقات المعنى التي تنشأ عن تداخل الخطابات، مما يجبر المترجم على أخذها بعين الاعتبار من خلال تنوّع أسلوبه يعكس تعدّد الخطابات (بما يشبه تعدّد الأصوات) وما يقتضيه من تعدّد للأساليب، لذا التنوّع خاضع لنبرات متفاوتة، ففي الرواية على سبيل المثال، نجد الراوي، أو إحدى الشخصيات، يسرد

سلسلة مشاهد عبر توظيفات قولية غيرية، يكون المترجم إزاءها أمام مجموعة نصوص غير متجانسة، ولا بد للترجمة أن تعكس تلك التنافرية l'hétérogénéité وهذا يعكس ذوقا ترجميا شديد الرقي، لأنه استماع جيد لهسيس اللغة على حد تعبير رولان بارث لكن هناك بعض الكتاب الذين يؤلفون نصوصا مدمجة، أي تحتوي على تناص ولكنه خفي لا يكاد يُرى، بل يُستشف استنتاجا، فحقّقوا انسجامية كاملة homogénéité ممّا يمنح المترجم فرصة لنقل ذكاء الانكتاب هذا على شفا ترجمة ذكية هي الأخرى، لا تلغي الأصوات المكتومة في النص ولا تُظهرها علنا، الأمر الذي يعكس قدرة اختزالية في قالب جمالي، لا يستطيعها إلا من توفّر له حنكة المعالجة النصية في معتركها المضني، ولا يقتصر الأمر على أقوال منسوبة، ولكن أيضا على حساسيات تحبيرية، فإذا صُمّمت الرواية على نمط يمتنع من الشعرية بنصيب، وجب على الترجمة أن تعكس المسحة المجازية عالية الوتيرة تلك، إذن الشأن التناظري هنا يمتنع من وسم التقابل بين لغتين في جميع حيثياتهما، إغفال ميزة واحدة، سيعني زيفا ترجميا، لأنه تغيبب لصفة قد تكون ذات وزن في الاحتسابات النقدية والذوقية ولمدى توفّر الجمالية، وهذا يعني انعكاسا للسياسات بمنطق استبدالي، أما في الشعر، فلا نعلم مدى الالتزام بالشكل الإحالي، اختلف المترجمون بين من يعكس وزن وقافية البيت الشعري، ومن ينثره، لأنّ ذلك رهين الاستطاعة والتمكين، إذ الغاية العظمى ألا يقع المترجم في ربكة الغموض بسبب نكهة الهجنة التي تُجَلّي غرائبية النص l'étrangeté، إذ على سبيل المثال، هناك صياغات ذات خصوصية نجدها في الأمثال والحكم، كيف يعكسها المترجم؛ ينقلها بحرفيتها؟ أم يعوّضها بأمثال وحكم من اللغة الهدف، الأمر الذي ينعكس على حسن التلقي، وكأنّ قارئ الترجمة قد تمت مخاطبته من مؤثّلات ثقافته، فيكون التفاعل أقوى وأجود، ذلك أن الغنى الثقافي الذي تحمله اللغة واسع الوفاض، ممّا يجبر المترجم على الاستعانة بوسائط مُغايرة والاجتهاد في أكثر من اتجاه، إذ أن الإشكال الذي تنبّه إليه بعض المُنظّرِين، أن الترجمة تُعَدِّم الكفاءة التناصية، وهي تلك الثقافة القبليّة التي يمتلكها المتلقي، الفاعلة في شخصيته، لأنّه حصّلها طوال حياته القرائية، أما في الترجمة فالمتلقّي يجهل خلفيات ما يُترجم له، وتُعدّ الإحالات والتوضيحات والشروح والتعليقات والملاحظات هي معمار الكفاءة التناصية التي يراد تخليقها من الصفر، وهذا إشكال إفهامي كبير، لكن هذا الأمر لا يُطرح على مستوى الثقافات المتقاربة باعتبار جل أعلامها ونصوصهم معلومة معروفة، إذ تتوفّر ما يُنعت بالكفاءة الموسوعية فجّل الفرنسيين - على سبيل المثال - يعرفون أغلب أعمال شكسبير وميلتون وغيرهما، بينما يجهلون تماما المتنبي وما يمثله في الثقافة العربية، لأنهم لا يتقاسمون معها مشتركات تراثية كما هو الأمر مع الألمان والإنجليز، وقد نسأل سؤالا هامشيا يُفترض أن تكون إجابته مُسلمة ترجمية؛ ما هي ضمانات حصول المترجم على الكفاءة التناصية التي يتطلّبها النص الإشعاعي؟ لأن السؤال مرتبط بعلائقية الترجمة بالمعرفة، إذ من نافلة القول أنّ المترجم لا يكتفي بالنص المُزْمَع ترجمته، بل ينبغي له حملة تثقيفية في محيط النص، وذلك بقراءة اشتغالات نقدية حول

العمل، توضح له خلفياته المتعلقة بالبيئة الحاضنة، وشخصية المؤلف، ورقعته الجغرافية، والسيروية التاريخية التي اندرج فيها، والعلاقات الإجتماعية التي نشأ في كنفها، بل والتاريخ الثقافي الذي يعكس أشكال التصورات التي من شأنها تفسير الكثير من مضامين وتمظهرات المتن، دون أن يغفل التأثيرات الأجنبية في التقاليد الأدبية التي تأسس على محكها العمل، هذا التحصيل الثقافي يدخل في خانة الكفاءة الموسوعية التي تحدثنا عنها آنفا. إذن هناك الترجمة، وما يكتمل به عمل الترجمة، وذلك ما يدعوه أنتوان بيرمان بأرضية إسناد الفعل الترجمي أي العدة المعرفية التي لا يتم العمل إلا بها، وهي عمل طوعي اكتسب صفة الضرورة، وأضحى وقاية من زيف الانحرافات الترجمية التي من شأنها تضليل القارئ غير المطلع. وكأننا نقول أن المترجم المثقف ثقافة عالية ومتنوعة (أي قارئ مثالي على حد تعريف أومبرتو إيكو) خير من المترجم العادي الذي يكتفي بالحد الأدنى من التثقيف العادي، وفي كل خير. كذا تستطيع الترجمة إكمال الدائرة الاتصالية على مستوى تواصلية الثقافة الكونية، فقط بتجاوز الحاجز اللساني، لذا وجب التفكير في حاجزية هذا المعطى، فنحصل على الفكر الترجمي، وهو تلك الحصيلة النظرية في المجال، مع مجموع الاستنتاجات التطبيقية التي تتيح لنا عولمة المنتج الثقافي، وتسمح لنا بالتفاعل معه كما لو أنه من إفرازات الذات الحضارية، ولكنها تتيح أيضا المساهمة في أدب العالم، هذا التداول الكوني للأثر الثقافي يتيح أيضا تجاوز العداوات القومية لأنه يفتح نافذة إنسانية على الآخر، وهذا الذي سيسهل أكثر ترجمة التناس، فالآثار العالمية كمنجزات تضحى من الكلاسيكيات المرجعية للفكر رغم تشظيه بين لغات كثيرة، وهذا الذي يجعل البحث في ميكانيزمات اللغة آلية مساعدة لفهم فعالية الترجمة، هذه التي تُعدّ تمرينا مفيدا جدا لكيفيات التعبير باعتبار التفكير العميق الذي يحوجه التركيز على قضايا تندرج في مستويات استباحة معرفية من الصعب إدراك قرارها، فهل نعدّ المعاني الترجمية مستعارة والمترجم مجرد ناقل ؟ نعم، حين يتدبّر في ما يعيد صياغته، لكننا نتحدث عن الأمر كوظيفة أولى، فيبدو الاستنساخ ظاهرا، ذلك أنّ الإبداعية الترجمية تتيح بعدا عن النص الأصل، الفاصل الإبداعي اجتهد مشخصن في عنفوان لغوي لا يكتفي بالعادي، وعندئذ تتمتع المطابقة بين ضفتي الترجمة، لكن هل هناك بالفعل مطابقة، أم هو هدف وهمي نظارده لكنّه كالسراب يحسبه الظمآن ماء؟ ذلك أنّ أكثر المترجمين واقعيّة يقول بمحاولة تحقيق المماثل مع احترام مسافة التباعد الضرورية بين اللغات، أي الفارق الهيكلي الذي يحول دون التكافؤات التي يدعي أصحابها أنّها كاملة مانعة، لذا ندلف إلى التكافؤ النسبي المهيأ، والتهينة آلية مقارنة تتشعّب بالغاية العليا التي يخدمها النص، أي منتهى الخطاب منه، فما كان خاضعا للغاية الفنية سيّسم بخواص مفرداتية وتركيبية وتحويرية لصالح ملمح دلالي تأكد منه المترجم ولو على سبيل التأويل، وبتخيّر المقاطع في مفاضلات المقصدية التأليفية ينشأ لدينا نص شبيه كأنه هو وليس هو، وذلك منتهى العلاقة التي تربط الترجمة بالأصل، ولعلّ الجميل، وفي نفس الوقت المُشكّي منه، هو مبدأ عدم الاتفاق حول صيغة ترجمة موحّدة كما أسلفنا القول، فتبارك الاجتهاد وتعدّد، وتوقّرت قوّة اقتراح موسّعة، وتم اللجوء إلى ظاهرة التجريب والاستنتاج لعلّها تسعف نحو إجادة ترجمة قابلة للمحاولة دائما، وفي البدء كانت اللغة، لكنها ليست معطى منتهيا، بل

قابلة للتأويل دون اللجوء إلى شسطه، هذا الذي مائعه أومبرتو إيكو حين أفق بعدم الخلو إلى قناعة دلالية ما دون عناصر لغوية تبيح تلك النهاية، لكن التأويل يفرض نفسه صيغة ما بعد تفسيرية عند تشعب تراكبات الجملة في منحائها اللساني والإحالي، لهذا وجب تحديد المساحات الحقلية لفعالية أطراف العملية الترجمية، لكن في إطار تعقيداتها مع أطراف الاشتغال اللغوي أيضا، إذ نلاحظ تقاطعات بينهما، لأن المترجم قارئ أولا، ثم محبّر ثانيا، ثنائية تجعله يتماهى مع وظيفتين تتقاسمانه، وبين عمليتي الاستهلاك وإعادة الإنتاج يتأتى توصيف الممارسة في إطار حسن تفسير المقروء أو تأويله، وحسن إعادة كتابته، وعليه أن يصيب الهدف في كليهما، خاصة على مستوى المتون الصعبة، فالشواهد التناسية عبارة عن عبارات متميزة ليست من تأليف المؤلف الذي نترجم نصه، بل مستعان بها من مصادر قرائية أخرى لغايات رسمتها متطلّبات النص، أو الموضوع، أو الخطاب، أو الاثر الحجاجي، أو الجمالي، اللذين يراد إحداثهما. يتطلب تحديد هذه الشواهد الظاهرة أو المعتمدة استراتيجياً تحليلية تحفر في مسارب الدلالة لتصنّف مصادرها الخطابية أولا، ثم العودة إلى مظانها المتنية لنستشف الدور الذي لعبته في تسييق المعنى، ثم إجراء عملية مقارنة بين دورها في سياقها الأول وسياقها الثاني في النص المُرجم ترجمته، كل هذا التحري عبارة عن تمهيد وأرضية تنتهي إلى الثقافة العالمة التي من شأنها التيسير والاستغراق في التفاصيل، فحين نتأمل المكوّن الأسطوري في النصوص نجده ينشطر إلى أساطير معروفة تحوج إلى القليل من التقصي، لكن هناك أساطير مغمورة تحوج إلى توثيق عريض *une documentation approfondie* لاستجلاء ظلال معانيها التي وظف المؤلف بعضها وترك البعض الآخر، لكن الأمر لا يتعلّق عند المترجم بمسألة آلية؛ أي كل ما يثبته المؤلف يجب نقله، هناك تفاصيل لا تهم قارئ الترجمة في شيء، ومن خلال ذكاء المعالجة يتم التفريق بين ما ينفع الناس والزبد الذي يذهب جفاء، لأن الترجمة كما يصفها البعض مصفاة حضارية ومعرفية ولا تتأتّى ممارستها بسذاجة، فالجزئية التناسية تتخلّق ديناميكية تعتمد على المعنى المزدوج؛ المعنى القريب والبعيد، الأول يحوج إلى القراءة الأفقية *linière* بينما الثاني يحوج إلى قراءة جماعية *plurielle* أو طباقية، باعتبار تراكبية الدلالة في نسقين متنافسين، ومناطق الاستخراج والتعرّف هو الكفاءة القرائية فغني عن القول أنّ المترجم حاصل عليها بالضرورة. تميّز الوحدات اللسانية يمنحها خصوصية التعبير المتفوّق، الأمر الذي يحوّل إلى اختبار ترجحي، فالمترجم في سياحة متواصلة بين النصوص التكوينية والكبرى، لعلّه يكتشف علاقات التأثير والتأثر، ويدرك إضافاتها النوعية على مستوى فائض المعنى، اشتغال الذاكرة الثقافية معرفة موسوعية في حد ذاتها، وقد يغدو من المناسب التساؤل: هل يعود اكتشاف المترجم للتناس إلى الصدفة، أم إلى اجتهاد قرائي خاضع لاستراتيجية تعرّف مرسومة بدقة؟ والحقيقة أنه كلما توسعت ثقافة المترجم وعمّقَتْ، عثر على تناسات طافحة تتحداه لترجمتها، فيعتقد أنه اكتشفها عن طريق الصدفة، بينما ذاكرته المعرفية هي التي ألقتها بين يديه، فلا شيء خاضع للصدفة أو الفراغ في النشاط الترجمي برمته، هذا

فضلا عن جانب ثانٍ يجب أن يتحلّى به المترجم، يتمثّل في حالة استبطان ذاتي في تصور كيفية تلقّي الترجمة من طرف قارئ لا يقاسمه المعرفة التي يتمتّع بها هو، لذلك عليه أن يدرس حيثيات استقبال النص ومدى إمكانية التفاعل معه سلبا أو إيجابا، ولعلّ أهم عنصر هو تجنّب الهجنة اللغوية على مستوى التركيب، وذلك حينما تحاول الترجمة أن تكون حرفية، فيكون الاهتمام منصبا على منعكس النص الأصل بمواصفاته الصياغية الديكالكية، مما سيُحدث لا محالة خلا في علائقية العناصر الجُمليّة وتراتبها، أي نقلا مناظرا وليس إعادة صياغة بلسان عربي مبين.

4- احترازاات منهجية

هل يمتلك المترجمون استراتيجيات منهجية في كفاءات التصديّ للموارد اللغوية، أم أنهم يتعاملون مع النصوص حالة بحالة ؟ إذ هناك النص الذي يفرض منطقه القرائي، ومنطقه القيمي، لا ينفع معه تطبيق التسطير المعيارى، بل لا بد من اختراقه بما تتطلبه حالته من خصوصية، هذا فضلا على أنه لا توجد آليات جاهزة تذللّ عوائق النص من دون نصّب ولا تعب، بل يتحقّق ذلك عبر الاشتغال المضني الموقفي الذي يتعامل مع الكثافة الترجمة بتركيز الكفاءة الترجمة التي تشتغل بعنفوان العقل المالك لخاصية اللغة، ولكن أيضا ببذل طاقة إضافية في التعرف على خصوصيات السياق، لكن لماذا هذا الحرص على تلك الخصوصيات ؟ ببساطة لأنها كملح الطعام، نكهة نص الترجمة لا تتم إلا بها، خاصة إذا كانت تحقق أهدافا تتجاوز الحد الأدنى من المعنى، هذا الذي سيكون على وجه اليقين في الدرجة الصفر من الكتابة، أي معطى تداولي في لغة تقريرية لا طعم لها ولا رائحة، وجزئية الظلال هذه هي التي تجسّد الإبداعية الترجمة، خارج هذا الإطار تكون الصياغة نمطية عادية تكتفي من الغنيمة بأيسرها ولا تحت الخطى نحو النفيس منها، هذا لنعلم – إذا ما وعى المترجم ذلك ونعتقد أنه يعي – أن الترجمة قد يُكتب لها الخلود إذا ما كانت متقنة بالمعنى الواسع للإتيقان، لأنها ستتحوّل إلى معلم ثقافي يشار إليه بالبنان، خاصة تلك المتعلقة بالكلاسيكيات الكبرى أو أي عمل مفصلي في ثقافة ما، فالترجمة تمتع شهرتها من أهمية العمل في لغته، إذ نترجم اليوم نيتشه، وهابيدغر، وكانط، وماركس، وفرويد، وهيجو، وسارتر، وكامو، ودولوز، ودريدا، وأونفراي، وموران، وإدوار سعيد، وجويس، وشكسبير، وموراكامي، وغيرهم كثير، لأن هؤلاء هم أساطين الفكر والأدب العالميين، وترجمة أعمالهم لا بد أن تكون علامة فارقة في تاريخ التعرف على الحضارات الغيرية، فأن نحفظ قيمة العمل كما ورد في لغته – بغض النظر عن تفاصيل هذه القيمة – تلك هي الأمانة التي يجب إيصالها للقارئ المحلي حتى يُكبر المنجز ويعلم مواضع العبقرية منه، ولن ندخل في مماحكات العدميين الترجميين، الذين يرون أن المترجم يجب أن يكون في نفس مستوى المؤلّف ؟ لأنّ هذه مجرد مقارنة ساذجة ومنطق فاسد، لأنّ عمل المؤلّف بدئي، بينما المترجم عمله يسير وفق نموذج سابق، تفوّقه يكمن في فهمه جيدا ومنحه ما يستحق من جهد التعرف الدقيق والعميق، فحين نتأمّل بعض الترجمات نجدها تستغرق سنوات طوال ومنها ما يمتد إلى عقود، وهذا يُظهر البطولة الفكرية والإصرار المستميت على إكمال الترجمة. يمكن أن نحدّد الحقول التي قد تشكّل تحديا ترجميا مثل الفلسفة والأدب والفنون التي تعترضها مشكلات مستويات الخطاب،

فكيف يمكن دمجها، أو إفرادها، أو تأويلها، أو البحث عمّا يعادلها في ظل شح النظير المكافئ، أما العلوم الدقيقة فتواجه مشكلة التصبيغ الاصطلاحي وندرة المقابل، رغم أن لغتها المباشرة عامل مساعد على حسن الترجمة ونجاحها، لكنّ الهمة الأولى تتمثّل في ألا يقع المترجم في حداد الترجمة على رأي بول ريكور، أي يجب أن تصبح عبارة «غير قابل للترجمة» أسطورة لا يمكن الإيمان بها، عندئذ تصبح المحاولة في حد ذاتها شرفا ترجميا أهلا لطموح التحليّ به، فالفلسفة في حد ذاتها كينونة ترجمة، وإلا كيف وصلتنا الفلسفة اليونانية القديمة، والرومانية، والغربية المعاصرة؟ وكيف وصلت الآثار الفلسفية إلى أوروبا عبر الأندلس؟ ذلك أن البعد التجريدي في حد ذاته سمة كونية بتفاصيل متغيرة تبعاً لكل تصوّر متلبّس بمعطياته الثقافية التي فرضتها الزمكانية، أي التاريخ والجغرافيا، ولكن رغم ذلك يطرح تحدّياً لسانيا، فلا تستجيب اللغة لحصر المفهوم إلا من خلال تراكم إنجازي يتيح لها النفاذ إلى دقة الاجترار، لذلك نجد التنظير يحاول تأسيس قواعد لقارة لترجمة التجريد، لكن التطبيق؛ هل يؤكدها أم يخيبها من حيث أنّ كل نص إلا وله خصوصيات تتجاوز بسياقاتها المرجعية النظرية، أي هل يختبئ التطبيق التنظير؟ المفردة الفلسفية تطرح إشكالا مثل مفهوم الـ Dasein لما رتن هايدغر، ولقد كانت مقدمة فتحي المسكيني في ترجمة «الكينونة والزمان» كافية لإظهار الصعوبات الجمة في مقارنة المفهوم عربيا ومحاولة ترجمته وكذلك الأمر مع مفهوم الجندر. كذلك التركيب يطرح إشكالا، أو التصبيغ المعقّد الذي ينبو عن التجسيد التمثلي للمقولات، كما شهدنا على سبيل المثال لا الحصر في ترجمة الكينونة والعدم لجون بول سارتر حين يضحى الفصل بين الإهاب اللساني للملفوظ والتصوّر أمرا شديدا الصعوبة، وهذا يظهر علاقة التجريد باللغة من حيث هي خصوصية لسانية، هذا الانعكاس المرآوي يُحوّج إلى استبدالات في اللغة الهدف. ذلك أن الكثير من الفلاسفة والمفكرين يطعم المفهوم التجريدي الموروث بلمسته الخاصة في تحويل الملفوظ، فنكون إزاء دلالة لا تمتنع من الفهم القياسي، بل من عنصره المتذوّت والمتلبّس بإضافة مؤلفه، ولأنّ التجريد تسلسل متواصل من المفاهيم المترجمة، يضطر المترجم إلى التتبّع الدقيق لتطورات الانتقال من فكر إلى آخر، فنجد - على سبيل المثال - مفهوما قد تأسّس مع هيجل، وانتقل إلى ماركس، ليرثه ألتوسير، مع ما في ذلك الولوج من ثقافة إلى أخرى من مشكلات تصوّرية، ليصل المفهوم إلى العربية جمع أمشاج سياقية مختلطة، إذن نحن نمر بعدة محطات ترجمية قبل الرسو في محطة أخيرة حاملة لمجموع التحويرات التي حدثت أثناء التحولات الخطائية بوجهة التمثيل المتفرّع عن الفلسفات الكبرى، هذا بطبيعة الحال دون احتساب المعاني المضيّعة عبر اللغات الوسيطة، وهذا ما نستشفّه حتى في ترجمة الكتب المقدسة، فعلى سبيل المثال نجد الأناجيل من العهد القديم، انتقلت من الأرامية، إلى العبرية القديمة، إلى اليونانية القديمة، إلى اللاتينية، إلى اللغات الحديثة من الفرنسية والانجليزية والألمانية وغيرها، هذه الرحلة المتطاولة تهشّم المعاني وتُحدّث فيها شروخا حد التعمية، وتُدخل عليها هجنة لا يمكن تلافيها، ممّا يؤثر على اتساقية

لماذا نترجم؟ من سذاجة السؤال إلى عمق الاشتغال التناسي ضبط مشكلة البحث

النص، ولحقاً ضرراً غير قابل للترقي بصدقية معانيه. وبين الأعمال الفكرية والأدب والفنون مشتركات في طرائق التناول الترجمي، ولكن بينها أيضاً فروقات جوهرية تطال مستويات استيعاب التخيل ومداوراته المخاتلة من المجازات الخاضعة لحيثيات لغوية تستوجب معالجات كثرة لا تصدر إلا عن خبرة وحكمة، فضلاً عن العلم بالتمظهرات الزبنيقية التي تنفلت من التحديدات المرجعية عبر مساربها الثقافية الخلافية.

**

5- المصادر والمراجع

- برث، جوديث. (2022). قلق الجنود: النسوية وتخريب الهوية. ترجمة: فتحي المسكيني. الدوحة، قطر: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات. (ط.1)، ص 7.
- هايدغر، مارتين. (2012). الكينونة والزمان. ترجمة: فتحي المسكيني. بيروت، لبنان: دار الكتاب الجديد. (ط.1)، ص 7-42 (المقدمة).
- سارتر، جان بول. (2009). الكينونة والعدم. ترجمة: نقولا متيني. بيروت، لبنان: المنظمة العربية للترجمة. (ط.1)، ص 9-20 (من مقدمة المترجم).
- بنكر، ستيفن. (2000). الغريزة اللغوية: كيف يبدع العقل اللغة. ترجمة: حمزة بن قبلان المزيني. الرياض، السعودية: دار المريخ. (ط.1)، ص 6.
- عنوان رواية لمحمد بورحلة. (2014). الجزائر: منشورات ميم. (ط.1).

- Barthes, Roland. (1984). Le Bruissement de la langue. Paris: Seuil.
- Berman, Antoine. (1995). Pour une critique des traductions: John Donne. Paris: Gallimard.
- Compagnon, Antoine. (1979). La seconde main: Le travail de la citation. Paris: Seuil.
- Jakobson, Roman. (1963). Essais de linguistique générale. Paris: Éditions de Minuit. T.1, 1973. T.2.
- Jenny, Laurent. (1976). L'intertextualité. Poétique, (27), 257.
- Kerbrat-Orecchioni, Catherine. (1986). L'implicite. Paris: A. Colin.
- Pinker, Steven. (2000). The Language Instinct: How the Mind Creates Language. New York: Harper Perennial Modern Classics.